



من أين جاءت العلاقة العضوية بين الدين والدولة العربية خاصة؟

التاريخ: Friday, November 21

اسم الصفحة: آراء وأفكار

شاكر النابلسي - امريكا



هل صحيح أن لحة الدين والدولة هي قدر الإنسان العربي مسلماً كان أم مسيحياً، وأن العربي لا يمكن له أن يفصل الدين عن الدولة أبداً، لا في الماضي، ولا في الحاضر، ولا في المستقبل، والدليل على ذلك أن العالم كله قد فصل الدين المسيحي عن الدولة ما عدا العالم العربي. ففي لبنان ما زالت السياسة الزوجية المخلصة لرجال الدين المسيحي - رغم العلمانية الظاهرية للمجتمع والدولة - وما زال الدين الزوج المتشدد للسياسة اللبنانية، وأن رئيس الجمهورية هو البطريرك بدون قبعة، وذلك دون باقي العالم المسيحي أجمع؟!؟

تلاحم الدين والدولة العربية

إذا كانت الدولة ستلغى في يوم من الأيام - وهذا شبه مستحيل - فإنه من المحتمل أن يلغى الدين كذلك، فالدين لن يلغى. وستبقى علاقته بالدولة العربية علاقة عضوية وممتينة، ما دامت الدولة العربية قائمة. فقد بدأ الإسلام منذ أيامه الأولى ديناً سياسياً، وانتهى بعد خمسة عشر قرناً وخلال ذلك ديناً سياسياً أيضاً. فالنبي محمد عليه السلام، لم يكن نبياً فقط، كالمسيح وموسى وغيرهما من الرسل، ولكنه كان إلى جانب ذلك حاكماً سياسياً استطاع أن يمارس دوره السياسي بوضوح، قبل وفاته وفي مدة قصيرة من الزمن، حيث أكمل هذا الدور من جأوا بعده في الخلافة.

فمحمد عليه السلام، لم يكن نبياً فقط كما قال كثير ممن نادوا بفصل الدين عن الدولة، وعلى رأسهم علي عبد الرزاق الذي قال: «إن محمداً ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين. لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة. وما كان إلا رسولاً كإخوانه الخالين من الرسل» (علي عبد الرزاق، الإسلام وأصول الحكم، ص154). وهذا غير صحيح. كما أنه غير صحيح أن «النبي لم يكن في وقت من الأوقات، رئيس دولة، وإنما ظل النبي الرسول عليه السلام» (محمد خلف الله، النص والاجتهاد والحكم في الإسلام، ص43). وما قول الرسول عليه السلام لعمر بن الخطاب: «مهلاً يا عمر.. أتظننها كسروية.. إنها نبوة لا ملك» - وهذه إشارة لبني إسرائيل الذين كانوا يحكمون من قبل الأنبياء. فكلما مات نبي خلفه آخر كملك وكنتي في الوقت نفسه. كما أنها إشارة لحياة التقشف التي يجب أن يكون عليها الأنبياء من غير الملوك - إنما جاء رداً على الذين يريدون منه أن يحيا حياة بانحة مترفة، وهو المرسل للفقراء، والأشقياء. ولكن الرسول عليه السلام كان يظهر كرئيس، وزعيم دولة، ليس من خلال تصرفاته الاجتماعية والرسمية، ولكن من خلال أفعاله السياسية والعسكرية والإدارية والتنظيمية والاقتصادية.

دولة النبي من أجل نشر الدين الجديد

فكان الرسول عليه السلام، يريد إقامة دين ودولة في آن واحد، وإن كانت غاية هذه الدولة نشر الإسلام بالدرجة الأولى. ذلك أن الدولة لم تكن ركناً صريحاً أو أصلاً رئيسياً من أركان الإسلام وأصوله، وإنما كانت مستلزماً وواجباً ضمناً من واجبات، ومستلزمات، وأدوات نشر الإسلام، والتي بدونها، فإن الإسلام سيظل محصوراً ومهدداً في مساحة محددة. ففي بداية عهد أبي بكر، كان الإسلام مهدداً عندما توقفت مجموعات كبيرة من القبائل عن دفع الزكاة، رغم تمسكها

بدينها الإسلام. ولولا وجود دولة النبي، التي أورتها لأبي بكر في ذلك الوقت وما لها من قوة ردع عسكرية ضاربة، قادت حروب الردة، لما استطاع أبو بكر أن يلزم هذه القبائل على دفع الزكاة، التي هي ركن من أركان الدين. فكانت الدولة مُستلزمةً وضروريةً من ضرورات إقامة الدين وتنفيذ أحكامه. فالإسلام انتشر بالفتح وليس بالدعاة والهداة فقط، والفتح لا بدُّ له من دولة. فالدولة أدت إلى الفتح، والفتح أدى إلى الغنائم، والغنائم كانت بسبب النصر الذي حققه المسلمون بفضل من الله ونتيجة تمسكهم بالدين والدفاع عنه ونشره - كما جاء في الأدبيات الإسلامية - فتعزز الدين وانتشر وقوي. فحفظُ الذكر لا بدُّ له من سلطة، وهو ما توفره الدولة القوية.

ومن هنا لم يكُ النبي عليه السلام على هذا النحو نبياً فقط، وإنما كان حاكماً سياسياً وقائداً عسكرياً أيضاً، كما لم يكن أي نبي أو رسول آخر من قبله. وكان الرسول عليه السلام «يدرك بأن بناء الدولة الإسلامية جزء من مهمته كنبى ورسول» (خالد محمد خالد، الدولة في الإسلام، ص25). وكان من بين أهدافه السياسية والعسكرية نشر دعوته على أكبر عدد من الناس، وعلى أوسع بقعة في العالم، باعتبار أن الإسلام جاء للناس كافة. كما أن براعته التي أظهرها في القيادة السياسية والقيادة العسكرية، كانت من مستلزمات الحُكَّام العظام في العصور الكلاسيكية، فيما لو علمنا أن العرب لم يوحدهم عامل وسبب، كما وحدهم «الفتح» الذي استلزم قوة عسكرية جبارة.

دلائل حاكمية النبي عليه السلام

وأما الدلائل على حاكمية النبي محمد عليه السلام، الميزة التي لم نقرأ مثيلاً لها في تاريخ الأنبياء والرسل الآخرين، فتتضح من خلال الحقائق والوقائع التاريخية التالية:

1- كان الرسول عليه السلام، قبل هجرته من مكة إلى المدينة قد خطط لبناء دولة في المدينة بعد هجرته إليها. وهو لم يقل لنا هذا قبل الهجرة. ولكن العقد السياسي والعسكري والاجتماعي الذي وقَّعه مع قادة وزعماء الأوس والخزرج في مكة فيما عُرف بـ «بيعة العقبة» كان الخطوة الفعلية الأولية لبناء هذه الدولة الدينية السياسية المقبلة.

2- بعد هجرة الرسول عليه السلام إلى المدينة، بدأ بتكوين دولة مدنية - ينفي بعض المفكرين أن تكون دولة الرسول عليه السلام مثلاً يحتذى لإقامة دولة إسلامية. ويقولون بأن دولة الرسول عليه السلام قامت على القيم الدينية ولم تنجح إلى أخلاقيات السياسة وسلوكياتها. وكانت حكومة من نوع خاص، لا توجد إلا حيثما يوجد نبي، ولا نبي بعد محمد عليه السلام. في حين ينفي علي عبد الرازق أن تكون هناك دولة دينية في الخلافة الإسلامية ويقول: إن كل ما شرعه الإسلام وأخذ به النبي للمسلمين من أنظمة وقواعد لم يكن في شيء كثير ولا قليل من أساليب الحكم السياسي ولا من أنظمة الدولة الدينية». (أنظر: محمد العشماوي، «الإسلام السياسي»، ص8، وانظر: علي عبد الرازق، «الإسلام وأصول

الحكم»، ص32) - ليست قاصرة على المسلمين ولا هي بدولة للمسلمين فقط، وإنما أشرك فيها اليهود أيضاً، دون أن يشترط عليهم التحول إلى الإسلام- يقول بعض المفكرين ان دولة النبي عليه السلام، كانت عبارة عن تجمع قبلي كوندراي. وأن النبي أعطى العامل القبلي أهمية في دستور هذه الدولة. وأن القبلية كانت اللبنة الأولى في بناء دولة الرسول عليه السلام السياسية، ولم تكن الدولة العربية الإسلامية فقط هي الأولى في تاريخ شبه الجزيرة العربية، التي كانت بهذا الطابع التجمعي القبلي الكوندراي. وأن الجزيرة العربية عرفت في تاريخها أمثال هذه الدولة. فقبيل ظهور الإسلام ظهرت في مكة دولة «ملا قريش» المكونة من أثرياء قريش، وأصحاب النفوذ التجاري والديني كما ضمت ممثلين لبطن قريش العشرة. (أنظر: سمير أمين وبرهان غليون، «حوار الدين والدولة»، ص99. وانظر: محمد عمارة، «الخلافة

ونشأة الأحزاب الإسلامية»، ص53، 132، 133). وكان مجتمع دولة النبي عليه السلام متعدد الإثنيات، واللغات، والديانات. ووضع الرسول عليه السلام لهذه الدولة دستوراً يشتمل على سبع وأربعين مادة تنظيمية، لشؤون الحرب، والسلم، والمال، والحدود الجغرافية، والعلاقات الداخلية والخارجية. وهو ما أطلق عليه مؤرخو الإسلام «الصحيفة»، أو «الكتاب» (انظر: مونتجومري وات، «محمد في المدينة»، ص337). وأطلق على رعايا هذه الدولة «أهل الصحيفة»، أو

«أهل الكتاب». ومن هنا تكونت عناصر الدولة: الزعيم والقائد، الرعايا، والدستور الموضوع. وتمت إقامة أول دولة عربية - غير قاصرة على المسلمين - في التاريخ بزعامة الرسول عليه السلام. واشترك فيها اليهود، وكانت أبرز القبائل اليهودية التي انضوت تحت راية هذه الدولة: بنو النجار، بنو عوف، بنو الحارث، وغيرهم. وهكذا «أعلن النبي أن اليهود والعرب يؤلفون أمة واحدة، دون تمييز بينهم في العرق أو الدين أو الانتماء القبلي» (جوزيف مغيزل، العروبة والعلمانية، ص139).

3- نشأت الدولة الإسلامية كحاصل توازن بين منطق الجماعة التي كونها الدين ومنطق الدولة، التي فرضتها الحسابات

الجيوستراتيجية والسياسية. وكانت ولادة هذه الدولة ولادة قيصرية، أُعيد فيها تعيين مكانة الدولة، ومكانة الدين، وتبديل مفهوم الدولة، ومفهوم الدين. وظل تاريخ الدولة الإسلامية فيما بعد يدور حول تبدل موازين القوى بين الجماعة والدولة من طرف، وبين الجماعات الدينية والدولة من طرف آخر.. (سمير أمين وبرهان غليون، حوار الدين والدولة، ص 40). وكان لدولة الرسول عليه السلام جهازها العسكري والمالي والإداري والقضائي. وكان للرسول - كحاكم أعلى وكرئيس دولة - مستشارون ووزراء، يديرون مصالح ووزارات. (وهذا لا يعني أن نقيم دولة على غرار ما فعله الرسول عليه السلام أو الخلفاء الراشدون من بعده. ذلك أن لكل زمان معطياته وظروفه السياسية الخاصة به. فالتجربة السياسية - الدينية التي قام بها الرسول عليه السلام هي من وحي تجربة تمت قبل خمسة عشر قرناً بما كان يميزها من واقع ديني وسياسي واقتصادي واجتماعي، يختلف عن واقعنا اليوم). وقامت «هيئة العشرة» التي كانت تتكون من القرشيين فقط، منهم: أبو بكر، عمر بن الخطاب، سعيد بن زيد، عبد الرحمن بن عوف، سعد ابن أبي وقاص. فمن المستشارين كان «هيئة العشرة» من المهاجرين الأوائل، ومن «هيئة الإثني عشر» نقباء الأنصار. وهؤلاء كانوا بمثابة مجلس شورى، أو برلمان النبي عليه السلام. وقد خرج الخلفاء الراشدون الأربعة من هذه الهيئة.

التشكيل الإداري والسياسي لدولة الرسول عليه السلام

أما التشكيل الإداري والسياسي لهذه الدولة، فكان على النحو التالي:

- 1-وزارة التربية والتعليم، وتشمل إدارات:تعليم القرآن، تعليم الكتابة والقراءة، الإفتاء، تعليم الفقه، والإمامة.
- 2-وزارة الحج، وتشمل إدارات:السقاية، وإمارة الحج.
- 3-وزارة الخارجية، وتشمل إدارات:السفراء، والتراجمة.
- 4-وزارة الإعلام، وتشمل إدارات:الشعراء، والخطباء.
- 5-وزارة الدفاع، وتشمل إدارات:أمراء القتال وجنده (ما يعرف اليوم برئاسة الأركان) ، كتّاب الجيش، فارضو العطاء (ما يعرف اليوم بالإدارة المالية)، العرفاء من رؤساء الجند. الحرس النبوي، المستخلفون على المدينة (ما يعرف اليوم بالحرس الوطني)، مستنفرو الناس للقتال (ما يعرف اليوم بدائرة التعبئة العامة)، صاحب السلاح (ما يعرف اليوم بالمستودعات العامة للجيش)، القائمون على متاع السفر (ما يعرف اليوم بدائرة النقل العسكري)، خازلو الأعداء (ما يعرف اليوم بدائرة الاستخبارات العسكرية)، ومبشرو النصر (ما يعرف اليوم بدائرة التوجيه المعنوي والإعلام والمصدر المسؤول أو الناطق الرسمي).
- 6-وزارة المالية، وتشمل إدارات:عمّال الجباية والخراج، عمّال الزكاة والصدقات، والخارصون (المقدرون لإنتاج الشجر من الثمر بالظن أو التقدير) للثمار (ما يعرف اليوم بدائرة ضريبة الدخل).
- 7-وزارة الداخلية، وتشمل إدارات:صاحب العسس (ما يعرف اليوم بمدير الأمن العام) ، العين (ما يعرف اليوم بدائرة المباحث والاستخبارات)، السجان (ما يعرف اليوم بمصلحة السجون)، المناادي (ما يعرف اليوم بدائرة الإعلام أو المصدر المسؤول بوزارة الداخلية) ، ومقيم الحدود (ما يعرف اليوم بالجلاد أو السياف).
- 8-وزارة الصحة، وتشمل إدارة متولي التطبيب والعلاج.
- 9-وزارة الأوقاف، وتشمل إدارات:فارضو المواريث، فارضو النفقات، إمامة الصلاة، والأذان.
- 10-وأخيراً، الديوان النبوي، ويشمل إدارات:الكتابة، الترجمة، الخاتم، والحجابة (تعني بلغة اليوم التشريفات في الديوان الملكي أو الجمهوري أو الأميري. والحاجب هو رئيس التشريفات. والتشريفات كلمة تركية تعني الاستقبال والتوديع).

لمزيد من المعلومات

هذا، ولمزيد من المعلومات عن دولة الرسول عليه السلام، يمكن الاطلاع على «تخريج الدلالات السمعية»، لأبي الحسن الخزاعي (1026-1103). والاطلاع على «نظام الحكومة النبوية» لعبد الحي الكتاني. وكذلك الاطلاع على «العلمانية ونهضتنا الحديثة»، لمحمد عمارة ص45، وما بعدها.

وهذا التنظيم السياسي والإداري والعسكري، لم يكن موجوداً كله، وبهذا التفصيل عند العرب قبل الإسلام. ولا بدُّ أن النبي عليه السلام، قد استعان بخبراء غير عرب، وغير مسلمين، من البيزنطيين في الشام، والساسانيين في العراق وغيرهم، لإقامة هذا الكيان السياسي والإداري في دولته الجديدة.

هذا الخبر من موقع جريدة المدى
<http://www.almadapaper.com>